

النص المقدس بين إشكالية التأويل وتطبيق المنهج الفينومولوجي عند حسن حنفي

مالك أم الفداء

جامعة محمد لمين دباغين-سطف-2-(الجزائر)

Fidamlk07@gmail.com

ملخص:

مسعانا من هذه الورقة البحثية هو بسط المقاربة الفينومولوجية التأويلية لحسن حنفي الذي أقامها من منطق التفكير المؤسس على ان النص المقدس يستوجب التأويل المطعم بالمنهج الظاهرياتي القادر على خلق قراءات وأدوات وإجراءات محكمة وتصورات مفاهيمية تستشعر من النص تجربة شعورية حية تتصلح وحاجات المجتمع بدل الأزمات المعاشة عن طريق العملية التجديدية لغلوم القرآن وخلق أيديولوجيات ثورية للمستضعفين والمقهورين في عصر الحريات التي تنادي بها الفلسفات المعاصرة لذا كانت غاية حسن حنفي هو طرق باب التجديد الفاعل انطلاقا من التراث بغض النظر عن الوسيلة المنهجية المستخدمة في ذلك ولعله الحل الأمثل بالنسبة له في لتجاوز هذه المرحلة المتأزمة.

الكلمات المفتاحية: النص المقدس، التأويل، المنهج الظاهرياتي، العملية التجديدية.

Abstract:

The purpose of this research paper is to extend the theoretical phenomenological of Hassan Hanafi, who founded it from the logic of thought based on the fact that the sacred text requires the interpretation of the phenomenological approach, which is capable of creating readings, tools and procedures, and conceptual perceptions that perceive the text as a living sensory experience. The renewal of the Quran and the creation of revolutionary ideologies for the oppressed and the oppressed in the era of liberties advocated by contemporary philosophies. So Hassan Hanafi's goal was the methods of effective renewal from heritage regardless of the methodological method His blood in that perhaps the best solution for him to overcome this crisis stage

Keywords: Sacred Text, Interpretation, Phenomenal Approach, Refurbishme

1.مقدمة:

كان للقراءات الجديدة حضورها المتميز بغرض إعادة ضبط للنص المقدس خاصة وانه اصبح في امس الحاجة لتأويلات لا مانع لها من الاختلاف لتصدي عملية التأويل الأحادية والتي تتماشى ومتطلبات العصر لتبرز بعض الجهود الفكرية التي تبقي على امل تغيير الحاضر من هنا يأتي موضوع بحثنا ليقارب إحدى المشاريع الفلسفية التي ترى بمنظار تجديدي ألا وهو مشروع حسن حنفي من جهة أن التراث يمثل الجبهة الأولى في مشروعه التجديدي ، فقد سعى جاهدا للارتقاء بهذه العلوم من خلال سعيه إلى تطويرها وإعادة صيغتها طبقا للظروف الثقافية

والحضارية المعاشة التي يتخبط فيها العصر، سواء تعلق الأمر بالمشكلات الغربية المعاصرة المتسلطة أو حتى ما يخص المشكلات التي يفرزها الواقع العربي المعطوب. هذه الظروف ومآسيها كانت بمثابة الحافز الذي دفع حنفي على التفكير في تجديد وتأويل التراث الإسلامي و الكد على القفز بعلومه القديمة من السكون إلى اليقظة بالأم العقل العربي ومكاسبه حسب تقديره، وأيضاً من أجل أنسنتها بنية بيان مقاصدها المخبوءة ومن ثم يتم تحويل العلوم الإسلامية الأصلية (علم أصول الدين و علم أصول الفقه) إلى علوم إنسانية من خلال الانتقال بالمركز و الثورة من الله إلى الإنسان دون أن يكون هناك تجاوز لقوانين ومقاصد الله ، خاصة وأن القدماء حسب ما يرى حنفي قد أهملوا مبحث الإنسان و همشوه في تأسيسهم لهذه العلوم التراثية لذا كان المال و السبيل الأسلم في نظر حنفي للخروج من سجن التأويلات المغلوطة الشائعة هو حضور الفلسفة الفينومولوجية الغربية المعاصرة كمنهج يتمشى وعصرنا الآني لقراءة التراث و مقاليد من أهم الأدوات التي تسلم بها متوسلاً منها الخروج من ظلام هذا السجن الذي يعاني منه العقل العربي.

لذا كان المخرج الأسلم من هذا المأزق الحضاري هو تطعيم التأويل بالمنهج الظاهراتي. الذي يستطيع أن يتجاوز الاضطراب الذي اعتري الوحي من منظور المفكر حسن حنفي خاصة لأنه يعتبر من الذين برزوا في الدفاع عن فلسفة التأويل وتأكيد على أن المنهج الظاهراتي التأويلي هو الأصلح للتعامل مع سؤال العصر.

تأسيساً على ما سبق سنحاول في ورقتنا البحثية هذه استقراء المنتج الحنفي والحفر فيه، كما سنركز على تمظهرات النظرية الفينومولوجية التأويلية في مشروع؛ باعتبارها باعث هذا المشروع وبؤرة إظهار الحقيقة الدينية لأنها تعتبر قرينة معرفية تحيل على حضور المرجعية الغربية بوصفها منطلقاً وتأسيساً لهذا المشروع.

1 -ماذا نعني بأزمة التأويل عند حسن حنفي؟

2-ما علاقة الشعور بالنص المقدس عند حسن حنفي؟

3-وهل يستطيع الاجراء الإنساني – الفينومولوجيا التأويلي – تفسير نصوصنا الدينية التراثية حسب حنفي؟

2. علوم التأويل ...بحث في جذور الأزمة

بان التأويل في الفكر المعاصر نتيجة أزمة في المناهج بلغت ذروتها في مواجهة النصوص لتخريج بدائل للتعلاقات الفكرية المهزومة والمأزومة، فكان للتأويل نصيب من الاستشكال الذهني باعتبار هذا الأخير من المواضيع التي لا يمكن تناولها إلا وفق ما تفرضه خطابات المناهج من أطر فكرية تتجاوز من خلالها ذلك الركود فلذا لا يزال تأويل النصوص المقدسة يحتل الصدارة منذ البدايات الأولى للنهضة في الفكر العربي وإلى الآن، يطرح هذا الأخير كإشكال فكري جوهري، فيطرح ضمن رؤية متوترة أنتجها واقع منهجي مهموم جاء كرد فعل للأزمات المناهج الغربية المستقاة من حضارة الآخر.

مساوقة لتمشي هذا الفرش الإشكالي

يأتي هذا الحديث عن التأويل: الوسيلة والطريقة ...يبدأ حسن حنفي تلك الطريقة في المبتدأ الذي يورقه ألا وهو الأزمة الحالية التي يتخبط فيها التأويل بنية تقعيد تأسيسية ومعرفي لها بعد توصيفها ووضعها في خانة الأزمات المعرفية الكبرى.

يتبدى لحنفي نزعتين لهذه الازمة: تاريخية ودوجماتيقية.

تاريخية: والتي تظهر عنده في أكثر الدراسات الأركيولوجية والتي تخط بين التأويل كمفهوم وتاريخه، خليطاً متشابكاً من الأشخاص والحوادث على الرغم من استقلالية التأويل عن ما يؤدي إلى الوقوع في مشاكل محتمة من (حوادث وأشخاص) لأن التأويل في نهاية الأمر موضوعه الأساسي هو النص الديني فبين حنفي إذن هنا إلى أن أصحاب النزعة الأولى (التاريخية) قد وقعوا في خطأ عندما ربطوا بين التأويل والعقيدة بمعنى آخر خضوع التأويل للدراسات التاريخية الصرفة دون أي جهد مفسر للنتائج المترتبة عليها، وغاب عليهم أن التأويل في الحقيقة ما هو إلا وسيلة من أجل الوصول إلى غاية (العقائد)¹

ولأن حديثنا عن التاريخية التي ضرت التأويل إلى حد ما كما يذهب حنفي إلى ذلك، في المقابل تأخذ التاريخية حظها من الاهتمام من طرف نصر حامد أبوزيد ولكن في سياق منظورية تختلف عن السابق، تم توظيف التاريخية عنده باعتبارها ذلك البناء لطبيعة اللغة وارتباط المعاني بالانساق التاريخية التي تثبت من خلالها، ولأن كل ما كان معاصراً للنص يدرك مفهومه. أما الابتعاد عن زمانه ومكانه سيقع في مشكلة نظراً لابتعاده عن الزمن الوجودي الحق²

أما النزعة الثانية الدوجماتيقية: تعنى بإلحاق التأويل بالوحي فتقبض على الوحي وتحوله إلى منهج حياتي يستعان به في الحياة الفردية وحتى الاجتماعية فيكون هدفه التأويل بذلك بناء أنساق لاهوتية قائمة لخدمة المؤسسات وغيرها³

وحسب التخمين الحنفي ترد الأزمة الحالية للتأويل في البحوث الدينية إلى عدم وجود توافق وتمائل بين الجانب الأول الذي اكتشفه القصد ونقصد هنا اكتشاف الدين الطبيعي، ونعني تماماً أنه ليس هنا أدنى فرق بين الدين والطبيعة تسائرا مع هذا المعنى، يكون التوافق المنشود بين ما يصب إليه الوحي كميدان للقصد وبين ما يترأى لتحقيقه في الميدان الواقعي للطبيعة لا يتنافيان جملة وتفصيلاً. "ومن ثم وضع الوحي في مواجهة الطبيعة كأنه خارج عنها، ومن ثم أصبح الدين الطبيعي موضع النقد ورفض كدين يرفض الوحي وعلى العكس الوحي والطبيعة شيء واحد⁴، ينبثق الوحي من داخل الطبيعة، والوحي فيض من الطبيعة" فحوى ما أراد التعرّيج عليه حنفي وإثباته هو أنه لا فرق بين دين طبيعي يثبت كل مكونات الطبيعة الإنسانية باعتباره دين له معطى يتضمن الواقع داخل الوحي، وبين وحي يفضي السماحة على هذا الدين.

على هذا النمط من الاشتغال التأسيسي نود أن نتحدث عن التأويل كمفهوم، والذي تضعه في مرتبة الربان المعرفي لمركبة حسن حنفي الفكرية، ومنطلقه في فهم معنى التأويل من أجل تععيد لدلالة النص، وبلورة رؤية حدثية للنص المقدس واستنبات منظورية محايدة للعصر، ومقاربة لهذا التبسيط يكون "النص بكل ما يحمله من تراث تفسيري واقع متعين في حياتنا اليومية وفي ثقافتنا المعاصرة يشكل حركة هذا الواقع"⁵ فلا يوجد تمفصلات بين النص وحياتنا الآنية كما بين نصر حامد أبوزيد تأكيداً منه أننا مجتمعات نص، حضارة نص. ولأن الممارسة التأويلية للنص المقدس تنتقل بنا من تكبيل القراءات السطحية للنصوص كما تجنبنا الوقوع في مأزق الثنائيات (التاريخية/ الدوجماتيقية).

تجاوزاً لذلك فإن مفهوم التأويل عند حنفي لا ينبغي أن يوضع في مقام فارغ من الدلالة الفلسفية المستقلة عن المحيط المعرفي لذا كان لزاماً على حنفي البحث عن ما هو قار في مفهوم التأويل من دور ابستمولوجي يسعى إلى تحقيق وئام نظري بين الأنا والعالم. والالتحام المنشود بين

ذات عارفة وموضوع المعرفة، هنا يظهر التأويل ليقيم ذلك الاتساق المعرفي والذي يتجلى من خلاله العالم واضحا أمام أسئلة الذات باعتبارها ذلك الجزء الذي يعيش داخل العالم⁶

ولأن "التأويل هو ما يعادل نظرية المعرفة التقليدية، ولكن هذه المرة بتوسط النص بين الشعور والعالم"⁷ يركن حسن حنفي عند معنى فكرة تجعل من التأويل تقدير النص بين الشعور والعالم المعاش، لا يبتعد علي حرب عن ما فكر فيه حنفي "فالتأويل حوار في صميم الكينونة، حوار لا مجال فيه للفصل التام بين الذات والموضوع"⁸ ذلك أن مؤول النص إنما يمارس أهواءه ويفكر في تاريخه و يسأل بدايته. فيفهم بذلك فهمه ويجهر بكينونته، خلاصة معنى الكلام أن لا وجود لذاتية أو موضوعية فاصلة أو إعطاء أولية للذات على الموضوع فحصول هذا الشد المعرفي بينهما يؤدي بالضرورة إلى عجز عن استنبات معنى وتحديث دلالة منتظرة.

إزاء هذا الوضع يحرص حسن حنفي على النبش على حل يفكر في أزمة التأويل وعلائقها. فكان المعنى الدقيق عنده بمثابة إيجاد "فن امتلاك كل الشروط الضرورية للفهم"⁹ كما يدعو إلى ذلك شلايرماخ فالعملية التأويلية عملية ليست بالسهلة لاحتياجها إلى مبادئ وأسس تجعل الفهم ممكنا لأن المؤول لا يبدأ من العدم كما ان النص ذاته لم يأتي من عدم.

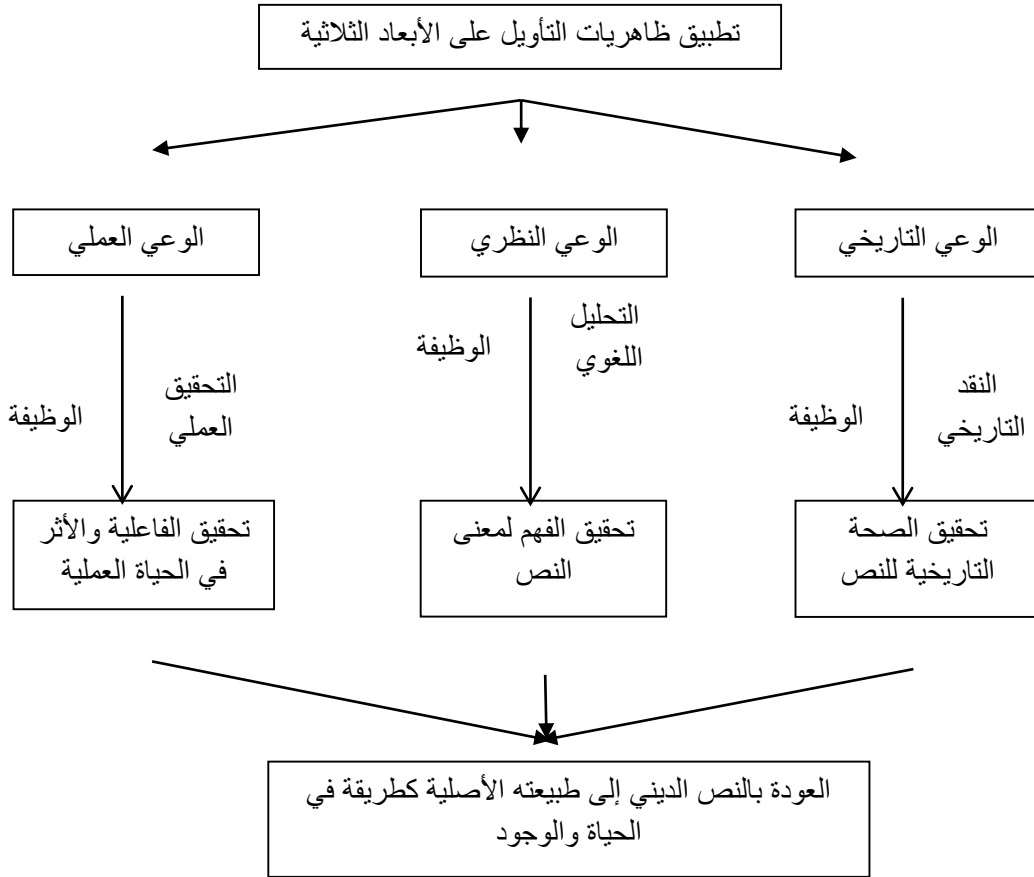
كان المنهج الظاهرياتي الملاذ الوحيد لحسن حنفي للخروج من أزمة التأويل، فالتشبث به لتطعيم التأويل طمعا فيه ليتخطى به الارتياحية التي سجت الوحي، من خلال محاولة تحريره من حمولة النزعتين العقائدية والتاريخية فتحجبه عن مواد **متفه** مع روح العصر، بالإضافة إلى تطهير اللغة من أجل البوح براهنية معانيها في سياق لغوي راهن، بحكم أن الشاهد على الواقع يلاحظ أن البحوث الدينية تعبر عن نفسها بلغة غير ملائمة للغة الواقع باعتبارها لغة مستقاة من التاريخ والعقائد¹⁰.

لا يجاهر هوسرل في الحقيقة بوجود صلة قائمة بين الظاهريات والهرمينوطيقيا. ولكن المحلل لمقولة هوسرل الشهيرة "العودة إلى الأشياء ذاتها اي الظاهريات" إنما تتطوي على معنى هرمينوطيقي متخفي، فما يتوارى وراء الأشياء "ليست هي الأشياء بقدر ما هي المقاصد، مقاصد المعنى التي تشكل الأشياء وعليه فان العودة الى الأشياء ذاتها، بمثابة العودة إلى القصديّة التي تقوم بتوليد الواقعي من الشعور، ثم إن البحث عن المعنى المستتر خلف الأشياء ومساءلة القصديّة الكامنة خلف جزء الظاهر من الظواهر مهمة معقدة تستحق أن تتعت بأنها هرمينوطيقية"¹¹.

يتكئ حنفي على لغة ظاهريات والتي تنتمي إلى الفلسفة الحديثة الأوروبية القائمة على حمولة لغوية منفتحة تنافي اللغة المنغلقة التي تقلل من صدى التأويل وايصال المعنى المرجو مثال ذلك: الشعور، الزمان، العمل، العالم، الآخر... الخ¹². كلها عبارة على شبكة مفاهيمية غايتها إضفاء المعنى وتحسين المظهر اللغوي القديم، لذا تتمثل الظاهريات لحنفي على أنها المخرج المنهجي المنتظر، بنية أن يسعفه في تشكيل خطة معرفية تكون لنا سندا في تخريج تأويل للنص الديني، باعتباره تجربة شعورية، لذا يتحدث حسن حنفي عن ممارسته الجريئة لظاهريات التأويل لمالها من آثار إيجابية على أشكال التأويل الثلاثة: النقد التاريخي والتحليل اللغوي والتحقيق العملي، قصد الكشف عن الوجوه المتعددة للحقيقة.

● **النقد التاريخي:** مؤداه هو البحث عن الصحة التاريخية للوحي، لأن دور الوحي هو استقباله في التاريخ، فيلي ذلك ضرورة فهمه واستعباده ضمن علائقية قائمة بين الذات والموضوع.

- **التحليل اللغوي:** يظهر هذا الشكل من اشكال التأويل ليحل وهم الدوجماتيقية، والتخلص من النزعة العقائدية للاهوت كنسق مغلق صوري يستخرج معنى النص يتنافى ومدلوله الداخلي.
- **التحقيق العملي:** من وهم الدوجماتيقية إلى وهم السكون باعتبار أن العقائد ليست عبارة على مذاهب صورية وعقلية، بل هي على قدر من القصديّة العملية والتي تحمل ثقل هذا القصد بحمولته المعرفية إلى قصد فعلي في الوجود لذا فالنص ما هو إلا نسق من الحركية التي تثبت في الوجود نوع المثالية في العالم¹³.



لعل هذا المخطط سيكون بمثابة الخارطة الفكرية التي تلخص وتوضح حل أزمة التأويل والتي حاول حنفي تجاوزها فكانت له امكانية سانحة لتحقيق التزاوج بين الظاهريات والتأويل.

تظهر حلول المنهج الظاهرياتي في النص الديني بوضوح من خلال ظاهريات التأويل التي تنهض بالنص المقدس على أنه حجر الاساس الواقع والموضوعي له، عن طريق اكتشاف صحة وصدق النص المقدس من كذبه والتي تستطيع اكتشافها ظاهريات الدين أو فلسفة الدين¹⁴

ولما كانت الظاهريات تحاول أن تدرس الأشياء في علاقتها بالذات لا منفصلة عنها، أي أنها تريد أن تبدأ من الخبرة المباشرة بالعالم والأشياء، أي من معنى أو ماهية الأشياء كما تبدو في خبرتي¹⁵ وليس باعتبارها مستقلة عني هذه المنطقة لا يتجاهلها حسن حنفي لذا يتمثل التأويل أمامه على أنه عدم خلط بين الواقعة والماهية ليصل بذلك إلى مرحلة الاتساق لا المفارقة فينقل النص المقدس بفعل ظاهريات التأويل إلى موضوع قابع في ثنايا الشعور.

فالنص المقدس مادة شعورية، وما الأزمات التأويلية والاشكالات الفقهية التي نعيشها ما هي إلا أزمة شعورية تحدث الفرد أو للجماعة وحل هذه الأزمة شعور يظهر جليا واضحا في علاقة شعور بشعور آخر ذلك أن "النص المقدس موضوع حي في الشعور والشعور كعقل متأمل في مضمونه هو صورته ومن ثم فإن المشكلة الممزقة للتأويل العقائدي بين الإيمان والعقل تجد حلا لها في مضمون الشعور وصورته كواجهتين للشعور"¹⁶.

في هذا المسعى، يتحرك حنفي في أفق دعم وإسناد للمنهج الظاهرياتي بعيدا على الذاتية وبترسانة غليظة من الثقة في التأويل الظاهرياتي، الذي يناشد به العلوم الإنسانية والتي يمكن لها أن تتحول به إلى علوم محكمة، ولما كان الوحي عبارة على مادة قابلة للتحقق والبحث وجب عليها التحول إلى علم محكم دقيق بفعل التأويل الظاهرياتي. لأن "الوحي كلام والكلام لغة، ومن ثم يظهر الوحي في صورة نص خاصة بعد الانتقال من التراث الشفاهي إلى التراث المدون... فإذا أرادت الظاهريات تحويل كل علم انساني الى علم محكم فإن ظاهرة التأويل بالتالي تريد تحويل الوحي إلى علم محكم"¹⁷.

ثمة التزام صريح من طرف حسن حنفي بالتأويل الظاهرياتي بحسبانها منطلقا منهجيا على درجة كبيرة من الأهمية لديه إذ يقر بأنه ينتمي من حيث المنهج والرؤية إلى جمع المتفلسفة والذين يرون في المنهج الظاهرياتي ملاذهم، باعتباره منهجا لا نظرية تنتهجها متون النصوص المقدسة فينبجس الوحي من جديد كطريقة في الوجود يتعايش مع المشكلات الانسانية والاجتماعية عن طريق المشاركة، كل هذا وذاك لم يتم إلا من خلال المنهج الظاهرياتي الذي فتح الباب أمام التأويل. يؤكد حنفي على أن "المنهج الظاهرياتي منهج البداية الجذرية، وهو سابق على كل منهج بالنسبة للمادة التي يتعامل معها، ويقوم بقلب النظرة كي يتخلص مرة أخرى من كل شوائب الاتجاه المادي"¹⁸.

التأمل يلمس مدى الانسجام القائم بين التأويل باعتباره رأس الأمر في العلوم الدينية والمنهج الظاهرياتي، هذا الايمان القوي الذي نستشعره في فكر حنفي عائد إلى أنه لا معرفة حقة تتكون بالوحي إلا من خلال استضافة النصوص المقدسة للتأويل طمعا فيه في كشف الستار عن آليات النص في إنتاج المعنى والإقرار بالحقيقة الكاملة في صميمه من قصدية شعورية.

1.2 النص...شعور

باعتبار ان النص الديني يتقوم في فكر حسن حنفي ليس عبارة على نص صوري خالص، بقدر ما هو تعبير عن تجربة شعورية حية تحاكي مقتضيات العصر، هذه التجربة المعيشة التي عايشها الاصولي القديم بتحليلاته الشعورية سابقا من خلال الاسلوب والتعبير لا تختلف كثيرا عن ممارستها من طرف الاصولي الحديث لكن الفرق في الزمان والمكان، وعليه يقول حنفي " كان اكتشاف حضور الشعور داخل النص الموحى في مناهج التأويل خاضعا لمقتضى النهضة في الحضارة... كان هذا حال كل معطى موحى في التاريخ، فالشعور حاضر حضورا تاما في البداية ثم تم تغطيته بلاهوت طاغ، كما جاء في الاصلاح ثم النهضة للإعلان من جديد حضور الشعور داخل معلمي الوحي"¹⁹.

فهذا الاعتقاد مبني عند حنفي على فكرة ان هناك علاقة جدلية بين النص والواقع، فالنص هو استجابة لمتطلبات الواقع، وأما الواقع فيجد الاجابة على أسئلته في النص ما أراد تطبيقه حسن حنفي هو أن تتحول الظاهرة الدينية كموضوع للخبرة الشعورية وبذلك تنزع عنه صفة المثالية.

في الحقيقة أن حضور مفهوم الشعور في فكر حنفي ليس بالغريب، فهو راجع للتأثيرات والفلسفات التي تأثر بصدها، من بينها فلسفة برغسون باعتبار أن الحدس عنده هو المحرك وتجربة للبحث عن الحقيقة الحية أين يلتقي حنفي مع برغسون؟ في اعتبار المعرفة البرغسونية تتجلى وتظهر عن طريق وثبة الشعور أي أن المعرفة الحقة لا تنفصل على نظرية الحياة، باعتبار أن الشعور لا يكون بدون شيء من الانتباه الى الحياة²⁰.

2.2 نحو منهج شعوري لتحليل الخبرات اليومية:

يمكن الإقرار أولاً، أن ضرورة التراتبية الزمنية للتطور الفكري لحسن حنفي كان لها الدور المهم في تشكيل تلك الرغبة الملحة في الوعي بذاته هذا الوعي تم توصيفه عند حنفي بالوعي الفردي والذي تبدى ظهوره أولاً كبديهية تعبر عن وعي الباحث بذاته ووعيه بالآخر، مؤكداً على أن "وعي الباحث هو الوعي الذي يشعر ويرى ويبحث ويكتشف في حين أن الوعي العادي هو وعي شيء آلة للحركة لا أكثر"²¹ لذا يميز حنفي بين شعورين متميزين يعيشهما وعي الباحث نسبة لحالته النفسية، "الشعور المركز الذي يعيش عاطفة حادة والشعور التائه الضائع في العالم"²²، شعور يعي موضوعه المدرك وشعور لا قطب مدرك له، وكأننا هنا أمام شعور ستاتيكي وشعور متحرك.

يشع الشعور الحق من جديد، من إطاره النظري إلى إطاره العملي، فقط في حالة تمثله في العالم تمثل تتحقق فيها الوحدة بين الفكر والواقع الناتجان عن تشابكهما مع الشعور. فتتحقق لحظة المطابقة المنتظرة بين وعي الشعور وذاته.

يصير حنفي على أن الاكتفاء بالانفعال بموضوع ما فقط لن يتحول إلى تحليل نظري للخبرات اليومية، ولا حتى الحصول بعاطفة نحو شيء إن لم يعمل فيها الفكر، وأن الحدس يغير علامة من العلامات الوجدانية التي تؤذن بمنهج التحليل النظري للخبرات اليومية. ولعلها نفس الدعوة البرغسونية التي تنادي بالإصغاء إلى لحن داخلي واندفاع حيوي تتأسس عليه نفس العالم²³.

وتماشياً مع هذا الطرح يتم الاكتشاف التلقائي لمنهج التحليل النظري للخبرات اليومية لحظة تحقيق للوعي الشامل كحضور فعلي وضمني له.

3.2 لحظات الالتقاء بين المنهجين (الشعوري والظاهرياتي)

وفي هذا المستوى من النقاش الحنفي مع منجزات المنهج وأدواته، للحنفي إلى هذا الاجراء والمتمثل في التمسك بلمسات المنهج الظاهراتي بعد القيام بتعديلات عملية تلائم ووضع الأزمة المعاشة.

نبحث الآن عن نقاط القرابة والتشابه بين المنهجين: بالنظر إلى مسعى حسن حنفي في التحاور مع المنجز الظاهراتي كمنهج تظهر عملية الاستيعاب له والفهم عن طريق استخدامه في البحوث الدينية وعلوم التأويل بعد خلق للظروف المواتية لتأسيس منهج يتلائم و الوضع المخصوص التي تعيشه البحوث الدينية العربية. تأثيراً كان ناجم عن رؤية قصدية محكمة تتمثل في أن " المنهج الظاهراتي هو اكتمال مسار المثالية الترنسدنتالية، المكسب بالأصالة من الفلسفة

الأوروبية، هو المنهج الأقدر على تناول البحوث الدينية خاصة علوم التاويل، ويمكن رد التاريخ وهو العقبة الكؤود أمام اللاهوت الدوجماتيقي عن طريق تطبيق منهج الظاهرياتي²⁴ بالإضافة إلى تقديم البحوث اللغوية وهي السبيل الوحيد لتأويل النص، ضد التأويلات الدوجماتيكية الشائعة كما أن تطهير أنماط السلوك في تحقيق معطي الوحي .

وتساوقا مع هذا الفرش التحليلي كان لابد في وضع منهج مقارب المنهج الظاهرياتي، يكون أكثر فعالية ونفعية في التعامل مع النصوص الدينية الإسلامية وبيئتنا العربية. لذا يرجع حسن حنفي هذا الإتصال بالمنهج الظاهرياتي دون غيره بالمناهج العربية الأخرى إلى ثلاث أسباب:

- **الخاصية النظرية:** لعل ما ينقص المنهج الشعوري عند حنفي هو التفكير الذي لم يكتمل بعد في الشعور، ولعل الحاجة لتوفير هذه الخاصية إنما تتجسد في المنهج الظاهرياتي باعتباره يمثل قمة علم النفس التأملي أو النظري وهو تم تطبيقه سابقا باستقلالية عن علم النفس المعهود، فكان تدارك هذه العلة في التفكير فيما يتعلق باللغة والحركة والتطبيق والقواعد.
- **الخاصية النقدية:** لعل النقد من أهم الآليات التي تساهم إذا ما طبقت على عمل إلاً وبينت عيوبه وزلاته، حينئذ كان من الضروري أخذ وجهة نظر الآخر لتجاوز العيوب من خلال المنهج الظاهرياتي.
- **خاصية الخصوبة:** لعل هذه الخاصية تشتمل على ثلاثة من أشكال الوظائف المطلوبة، كالنقد التاريخي والذي يضع شعور الراوي في محك الحياد عن طريق التمييز بين الشعور المحايد والشعور الواضع، بالإضافة الى المبادئ اللغوية الخصبة التي يمتلكها المنهج الظاهرياتي، وأما الأخير فنود به خصوصية المنهج للانتقال من الظاهريات السكونية عن طريق الظاهريات الحركية والتي توفر تحقق تدريجي للنص كنظام مأمول للعالم. فيبقى النص وتأويله هو ما يشغل التفكير الحنفي والذي وجد في العودة إلى الأشياء في ذاتها كما تؤسس إلى ذلك الذهنية الهوسرلية ضمانا لحضور الواقع داخل النص²⁵.

4.2 الشعور وأبعاده

كان لأشكال العلاقة بين الوعي وموضوعه الديني حل كما يؤسس لذلك حنفي في ظاهريات التأويل القائمة على بناء وحركية بين الأنا والآخر، والتي توفر لنا تحليلا واضح للوحي يتأتى هذا المطلوب عن طريق ثلاث أبعاد للشعور إذا تحققت اكتمل الشعور.

كبداية مع الوعي التاريخي، والذي إذا ما نقص أو انعدم حضوره تسربت مجاميع النصوص المزيفة والتي تهدد صحة النصوص الحقّة نتيجة ذلك هو نشوء تناقض بين الحياة اليومية و هي من أساسيات التفسير، ومعنى النص المزيف يبدأ في الاشتغال، وهنا تبدأ عملية النقد، هذا الشّتات الواضح في الوعي التاريخي ينجم عنه سوء فهم في الوعي النظري فيبقى النص بلا فهم قار وبالتالي يحصل عدم التماثل بين المعنى المفهوم من النص وخبرة الحياة اليومية، لزاما لذا يجد الوعي العملي نفسه أيضا دون أي أساس نظري صحيح من أجل تطبيق للسلوك البشري، لأنه كلما نقص الوعي العملي كلما ظل المعنى المفهوم من النص الصحيح نظريا دون أي تحقق²⁶. وفي هذا المستوى من النقاش نصل إلى أن كل بعد من أبعاد الشعور لها وظيفتها الخاصة.

فوظيفة الوعي التاريخي: نقل نص الوحي من المبلغ الأول حتى السامع الأخير عن طريق النقل الصحيح.

وظيفة الوعي النظري: تتمثل في فهم النص وتحقيق التماثل بين المعنى المفهوم ودلالة الحياة اليومية.

3. القراءة الفينومولوجية للنص الديني:

لعل محاولة حسن حنفي لإعادة بناء أصول الدين و أصول الفقه لم تكن جديدة كل الجدة، وذلك راجع إلى تاريخية المحاولات التجديدية للعلمين تتناظم ومشاكل العصر ومعطياته – باعتبار أن هذين العلمين لهما مقاصد شرعية خفية تتماشى وروح الواقع، لذا فإن رؤية حسن حنفي الطامحة من خلال إعادة قراءة للعلمين تعد نوع من المسؤولية والمخاطرة، لأنها ستجعل من النص الديني موضوعاً للظاهراتية عن طريق الرد الماهوي فكان السؤال المحوري في فكر حنفي هو ماذا يفيدنا دراسة التراث ولم نستطع ربطه مع الحياة اليومية فلا يمكن لنا حسب التصور الحنفي العيش في الحاضر دون ماضي أو في الماضي دون حاضر.

ولعل تععيد حسن حنفي لمفهوم مقاصد الشريعة عنده تتوافق وقواعدها عند الإمام الشاطبي وهي مكان لتوحيد الوعي العربي الإسلامي دون النظر لانتماءاته الأيديولوجية وبالضبط في عصر العولمة أملاً منه في تطوير مقاصد الشريعة ومتطلبات عصر الحداثة وذلك يحصل فقط إذا تم الانتقال بمقاصد الشريعة إلى مقاصد العصر²⁷.

كان تركيز حنفي لتجديد علم أصول الدين وعلم أصول الفقه من فكرة مفادها أن علم أصول الدين هو علم يحدد تصورات العالم باعتباره ذا أصل نظري، أما علم أصول الفقه بمثابة معيار السلوك أي أنه ذا أصل عملي²⁸.

1.3 علم أصول الدين

جدوى تفكير حنفي في محاولته لتجديد مقاصد علم أصول الدين، ينظر بداية من الشكل والتسمية إلى المضمون والموضوع لذا يحدثنا حنفي على التسميات التاريخية التي مرت على الذهنية العربية الإسلامية، بداية مع علم التوحيد والذي يعني عند حنفي بأنه ذلك الأساس النظري للعمل، والذي يتقوم بعملية التوحيد والتي تنهض من توحيد الشعور، فالمجتمع، فالعالم في نسق واحد يخرج بطاقة فعالة لتوحيد الشعور الفردي وجمع متفرقات هذه الأمة على عكس ما قام به سابقاً على أنه عقيدة نظرية فحسب.

فنقد حسن حنفي لهذا العلم إنما يبدأ من خلال رفضة للأسماء المرتبطة بعلم الكلام القديم (التوحيد، علم الكلام، الفقه الأكبر، علم العقائد) باعتباره تقوم على التجارب النظرية لا العملية ولعل هذا ما أدى إلى فشل دوره في إثراء الحياة اليومية المعاشة فمثلاً اسم علم الكلام بالنسبة له يوحى بالكثير في الاختلافات في المعاني والمقاصد لذا فهو يفضل علم أصول الدين باعتباره العلم الذي يبحث في أصول العقائد²⁹.

أما من ناحية المضمون فحنفي يعيب على علم أصول الدين موضوعاته الثلاث التي وقف عليها القدماء وهي ذات الله وصفاته وأفعاله والنبوات حيث يصر على أن ذات الله لا يمكن لها أن تكون موضوعاً لهذا العلم، باعتبار علوها وعدم تنزلها إلى الحياة الواقعية، فلا يمكن لعقل إنسان أن يدرك الله كمفهوم واقع فجعل هذا العلم الله باعتباره صفات متعلقة بالدنيا وأخرى بالآخرة وهو ما لا يمكن وضعه كموضوع لهذا العلم³⁰.

لذا كانت رؤية حسن حنفي التجديدية ترمي بالضبط إلى تغيير موضوعه من التركيز والاجتهاد في البحث والتأكيد على صفات الله وذاته إلى تناول موضوعات تنقل الأمة من التخلف إلى التقدم على اعتبار أن علم أصول الدين هو علم توجيه السلوك سوى لدى الفرد أو الجماعة.

لذا يتم ظهور الشعور كذلك في علم أصول الدين، بالضبط في تحليل الأصول الخمسة عند المعتزلة كما يذهب إلى ذلك حسن حنفي والتي تحدد معظم مسائل العلم لرؤية الشعور، بداية بالتوحيد عندما يتحدث عن علاقة الذات بالصفات والأفعال هو في حقيقة الأمر تركيز على الإنسان الكامل، أما عن العدل فيكون شعور الإنسان على أنه شعور حر في داخله، بقية المنزلة بين المنزلتين يتأتى الشعور هنا على أنه أساس للفعل. بعدها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون الشعور على أنه الحارس لسلوك الآخرين³¹.

تظهر هنا تجليات تطبيق المنهج الفينومولوجي عند حسن حنفي واضحة من خلال ربط الشعور بأصول الدين بمعنى آخر أن علم أصول الدين يلقي معناه ودلالته فقط إذا تحول إلى مادة شعورية.

2.3 علم أصول الفقه

ولأن حسن حنفي أراد قراءة أصول الفقه قراءة معاصرة متجاوزا بذلك الشكل التقليدي لهذا العلم، لتخرجه إلى دائرة الشمولية اعتمادا على الظواهرية. فكان خيار حسن حنفي لأصول الفقه موضوعا هام للفلسفة إنما هو تطور لفكر مصطفى عبد الرزاق والذي نبهى إلى ضرورة البداية من علوم الملة لكل تأصيل فكري عربي إسلامي³².

فحاول حنفي البحث عن مسار جديد وحديث غير القديم حيث لم يكن هدفه تفسير النص أو شرح معاني الآيات وسبب نزولها وإنما كان هدفه الأول والأخير الوعي بالنص. عن طريق وعي شامل يتحول به هذا العلم إلى علم إنساني. وفق ثلاثة بنى للوعي (التاريخي، النظري، العملي). ولعل من أهم المرجعيات الأصولية التي عرج عليها حسن حنفي بالشرح هي الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي، والذي جمع بين المذاهب جمعا لفرق الأمة بين مذهبي أبي القاسم وأبي حنيفة، وقامت الشريعة هذه على النصوص والاخلاق والتجارب الشعورية التي ساهمت في ظهور فكرة المقاصد.

في الحقيقة أن حنفي مرّ على العديد من الأصوليين المجددين بالتحليل والشرح مثل محمد باقر الصدر وغيرهم، ما يهمننا هنا هو كيفية تطبيق القراءة الفينومولوجية لحسن حنفي على أصول الفقه ومحاولة تحويله من علم فقهي استدلالي منطقي إلى علم فلسفي سلوكي. وذلك وفقا لثلاثة أشكال من الوعي وقد حاول هنا تطبيق ما يعرف بالوعي بالزمان عند هوسرل ونقسم أصول الفقه إلى ثلاثة أشكال من الوعي

- **الوعي التاريخي:** إن مفهوم الوعي التاريخي عند حسن حنفي هو مسار الوعي عبر التاريخ، وتفسير ذلك أن الكتاب بمثابة تجربة إنسانية عامة مزدوجة بين كتابة القرآن ونقل أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، في لحظة من الزمان الماضي، ويقر حنفي على أن الوعي التاريخي يختص فقط بالكتاب و السنة دون الإجماع والقياس (فإن كان القرآن والسنة يعبران عن الوعي المكتوب، أما الإجماع والقياس يعبران عن الوعي الحي)، فيؤول حسن حنفي الإجماع على أنه تجربة مشتركة من زاوية فينومولوجية (مجمع الذوات)، باعتباره ذلك الجهد الجماعي والإرادي القائم على الحكم والفعل، وبالتالي هو إمكانية تعبير المجتمع

عن الحقيقة بعد انقطاع الوحي، إذ تستمر الأمة باعتبارها وحيا حيا بعد انتهاء الوحي المكتوب. وأما عن تأويل القياس هو تعبير عن تجربة فردية تسعى إلى تفعيد مقصد شرعي سلوكي لأن القياس (أصل من أصول الشريعة الأربعة، وهو القاعدة التي يقوم عليها كل النسق الأصولي، وهو المصدر الرابع في الترتيب النظري وهو القاعدة الأولى في التأسيس العملي³³)

• **الوعي النظري:** تمثلت قراءة حسن حنفي للوعي النظري على أنه ملكة فهم للوحي من خلال الكتاب والسنة والإجماع والقياس. ويتم ذلك من خلال أعمال العقل لذا يعتبره حنفي بمثابة نقطة الوصل بين الوعي التاريخي والوعي العملي. ويشتمل الوعي النظري حسبه على مباحث الألفاظ المتعلقة بأقسام الكلام لأن الكلام ينقسم إلى ما يدل، وإلى ما لا يحمل دلالة، والمعقول الخاص لمباحث العلة المرتبطة بالقياس. وأما عن المنظور المتمثل في الاجتهاد³⁴.

ويبقى المبحث الأخير حسب تأويله حنفي تحت اسم المفهوم الذي يندرج تحت (معقول الأصل و دلالة الأفعال) ونعني بالمفهوم "ما يقتبس اللفظ لا من حيث الصيغة بل من حيث الفحوى والاشارة... وهو الانتقال من العلامة إلى الدليل"³⁵ بحيث يمكن لنا استنباط المفهوم من ثنايا مباحث الألفاظ بالانتقال من اللفظ إلى تحديد المعنى. لأن الوعي النظري عند حنفي يقوم في الأصل على فهم المفسر بعد نقل الراوي كما لا يمكن لهذا الوعي أن يتقوم إلا إذا كان له أساسيات تأويلية لغوية. لهذا جعل حنفي من إشكالية التأويل تقوم على اللغة فالفكرة ثم الأشياء أي أن الفكر وهي المحرك وليس جوهر الأشياء كما صرح بذلك هوسرل، أي الوعي بموضوع ولعل هذا هو مكان إلتماس تطبيق قصدية الموضوع يجعل منهجية التأويل تبدأ باللغة والتي تعبر عن الواقع الانساني ولعل هذا ما دفع حنفي إلى جعل الإنسان هو المقصد الشرعي الأول للوحي³⁶.

وعلى هذا المستوى من الشرح يظهر الوعي النظري على أنه عملية مترابطة منطقية تهدف إلى مقصد شرعي إنساني بحث، يبدأ من الوعي الإلهي ثم الوعي الإنساني وأخيرا إلى الإنسانية جمعاء بلغة الظاهريات من الذاتية إلى التداوت.

• **الوعي العملي:** بعد العملية الإجرائية التأويلية لحسن حنفي للوعي التاريخي والذي أثبت صحة النص، والفهم القصدي للوعي التأملي للنص، يجلب حنفي الوعي العملي باعتباره الأداة المحقق للأحكام الشرعية ومقاصدها " المقصد الاعظم من الشريعة هو جلب الصلاح ودرء الفساد"³⁷.

فيضطلع حنفي في تقسيمه إلى قسمين: المقاصد والأحكام ويقف على أن المقاصد تعنى بأهداف الشريعة، أما الأحكام فهي تحقق المقاصد بطريقة عملية لصالح الفرد والمجتمع. بلغة حسن حنفي الانتقال بالقصد إلى الفعل. لسبب جلي وهو أن الشريعة وضعت كتلبية لمصالح العامة، باتفاق مع محمد الطاهر بن عاشور في كتابه مقاصد الشريعة الإسلامية مبينا معيار مقاصد الشريعة.

وملاءمتها مع المصلحة العامة بإقرار من العدل المدرك للشريعة ودعما للعملية التجديدية لعلم الأصول الحنفي، يضع الشاطبي الشريعة موضع الإفهام لأنها إن لم تفهم لا معنى لها³⁸.

لعل المنهج الظاهرياتي المعدل لحسن حنفي يصل إلى ذروة التطبيق فقط من خلال تحقيق مقاصد الوحي كبنية للعالم بواسطة العمل بمعنى مرحلة الوعي الفاعل. لا الوعي الساكن، ففعل التحديث على علم أصول الفقه ينطلق من الواقع وبالتحديد من مصالح الناس. باعتبار أن الإصلاح الجذري في نظره هو العودة إلى مقاصد الشريعة ومناهجها بما يخدم تغيرات الواقع.

4. خلاصة:

واستنادا لما سبق، يبقى اجتهاد حسن حنفي من خلال ابحاره داخل النص المقدس والاستمرار للوفاء لرؤيته التأويلية في صورتها الظاهرية سعيا منه في إقامة علم كلام جديد عن طريق محاولته لإعادة بناء علوم الأصول لتتحول هذه الأخيرة الى ثورة على الواقع فتعني بتحويل النص المقدس الى ايديولوجيات ثورية مبتدؤها أنسنه علوم القرآن، وإعادة النبض والحياة والفاعلية للتوحيد، بما يعمل على نهضة الامة وسد حاجات العصر وكذا تحقيق الصالح العام للمسلمين فيقفز التوحيد الى دائرة الحركية الموجهة لسلوك الفرد والجماعة، ليكون علم الكلام الجديد مع حنفي لاهوت ثورة... لاهوت تحرير... لاهوت تنصر من خلاله علوم القرآن. كل هذا انما يكون عن طريق الشعور القصدي القائم على كل فعل وفكر في العالم لتكون معطيات النص باعتباره المخزون النفسي للجماهير ويحاول اثارته من اجل الانتقال من حال بئس كنا عليه الى حال مزهر، ويكون ذلك بفضل القصديّة التأويلية الى ابنية شعورية تسعى الى صياغة للنص كايديولوجيا تغييرية للوجود المتردي في حضارتنا الإسلامية .

هوامش الدراسة :

1. حسن حنفي، ظاهريات التأويل، مكتبة مدبولي، ج2، ط1، (2013)، ص49.
2. نصر حامد أبو زيد، النص والسلطة والحقيقة، إرادة المعرفة وإرادة « الهيمنة المركز الثقافي العربي، ط5، (2006)، ص39.
3. حسن حنفي، المصدر السابق، (2006)، ص49.
4. حسن حنفي، تأويل الظاهريات: مكتبة النافلة ج1، ط1، (2006)، ص394.
5. نصر حامد أبو زيد، فلسفة التأويل: دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين ابن عربي، ط1، (1983)، ص193.
6. حسن حنفي، حصار الزمن، ج1، مكتبة الإسكندرية، (2006)، ص122.
7. المصدر نفسه، ص122.
8. علي حرب، التأويل والحقيقة، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (2007)، ص45.
9. عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، (2006)، ص17.
10. حسن حنفي، تأويل الظاهريات، مصدر سابق، (2006)، ص396.
11. جون عراندان (د)، المخرج الهيرمينوطيقي للفينومولوجيات، عمر مهبّل، ص43.
12. حسن حنفي، تأويل الظاهريات، المصدر السابق، (2006)، ص407.
13. حسن حنفي، تأويل الظاهريات، المصدر السابق، (2006)، ص412-413.
14. حسن حنفي، تأويل الظاهريات، المصدر السابق، (2006)، ص397.
15. سعيد توفيق، الخبرة الجمالية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط1، (1992)، ص19.
16. حسن حنفي، تأويل الظاهريات، مصدر سابق، (2006)، ص398.
17. حسن حنفي، تأويل الظاهريات، المصدر نفسه، (2006)، ص406.
18. حسن حنفي، تأويل الظاهريات، المصدر السابق، (2006)، ص400.
19. حسن حنفي، تأويل الظاهريات، المصدر السابق، (2006)، ص13.
20. هنري برغسون، الأعمال الفلسفية الكاملة، ت د سامي الدسوقي، تصدير محمد عناني وعبد القادر القط، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، (2007)، ص76.
21. حسن حنفي، تأويل الظاهريات، المصدر السابق، (2006)، ص55.
22. حسن حنفي، تأويل الظاهريات، المصدر نفسه، (2006)، ص55.
23. طرابيشي جورج، معجم الفلاسفة، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط3، (2006)، ص163.
24. حسن حنفي، تأويل الظاهريات، المصدر السابق، (2006)، ص59.
25. حسن حنفي، تأويل الظاهريات، المصدر السابق، (2006)، ص59.

26. حسن حنفي، تأويل الظاهريات، المصدر السابق، (2006)، ص70.
27. نورة بوحناش، مقاصد الشريعة عند الشاطبي وتأصيل الاخلاق في الفكر العربي المعاصر، جامعة قسنطينة، غير منشورة، (2007/2006)، ص66.
28. حسن حنفي، من العقيدة إلى الثورة، المجلد الثاني، التوحيد، دار التنوير، ج2، (1988)، ص59.
29. حسن حنفي، من العقيدة إلى الثورة، مصدر سابق، (1988)، ص60.
30. المصدر نفسه، ص62.
31. حسن حنفي، التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط4، (2002)، ص114.
32. حسن حنفي، من النص إلى الواقع (محاولة لإعادة بناء أصول الفقه)، ج1 (تكوين النص) 1، دار المدار الإسلامي، ط1، بيروت، (2004)، ص110.
33. ¹أشرف حسن منصور ، حسن حنفي والقراءة الفينومولوجية للتراث الديني، موقع الحوار المتمدن، (6/10/2018)، ص5. <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=84687>
34. حسن حنفي ، من النص إلى الواقع، ج2(بنية النص)، دار المدار الإسلامي، ط1، بيروت، (2005)، ص251.
35. أحمد عبد الغفار، التصور اللغوي عند علماء أصول الفقه، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (1996)، ص421.
36. أنطون سيف، حسن حنفي وفينومولوجيا التفسير والتأويل، مجلة أوراق فلسفية، العدد 28، (2010)، ص39.
37. محمد الطاهر بن عاشور(1988)، مقاصد الشريعة الإسلامية، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط3، (2010)، ص64.
38. جمال الدين محمد عطية، نحو تفعيل مقاصد الشريعة، المعهد العالمي الإسلامي، ط2، (1981)، ص33.